

في نور محمد فاطمة الزهراء

فلماذا الجفوة؟ ما الذي غيّر هذا التغيير؟ كبرياؤها تأبى عليها أن تستنبئه سرّه. ثم علمت ما خفي عنها كلّ تلك الأيام الطوال، زلّ به أمامها لسان إحدى المهاجرات. وعندئذ هالها ما سمعت ... فأيّ هول! صعقها الخبر، أحسّت بقلبها في جوفها ينفجر، وتدفع غضبها مع دموعها يلوم أمّها على الكتمان: يغفر الله لك يا أمّاه! تحدّث الناس بما تحدّثوا ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً؟! فلم تمهلها الأم أن تسترسل، بل عاجلتها مهوّنة: أي بُنيّة! خفّفي عليك الشأن، فوالله لقلّما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبّها لها ضرائر إلاّ كثرن وكثر الناس عليها. أمّا محمد، فقد كان في همٍّ واصل، وألم مقيم من هذا الذي هتر [1026] به الأفّاكون، ثم هتنت [1027] ألسن المنافقين أينما مضت به قدم؛ حقداً عليه ونكايةً فيه كانت الحيرة تمرّقه، وكانت الغيرة تنهشه بأنياب أرقام [1028]. ولو أن فاطمة عجمت [1029] المحن التي أصابته، لما وقعت بينها على محنة هي أضع من هذه فطاعة، أو أبشع بشاعة ... ولو أنّها راجعت ذكرياتها معه، لما علمت قلبها قد تفتّر مرّةً؛ رحمةً وحسرةً، كما تفتّر هذه المرّة. أمّا الرحمة فلعائشة الطعينة في شرفها - افتراءً - وليست تدري بأيّ سلاح تردّ الفرية، ولا كيف برؤّها من الطعنة ... وأمّا الحسرة فعلى الأب الذي يفتّسه الشكّ الضاري، ثم لا يكاد يجد منه لنفسه خلاصاً ولا مثابةً. لكأنّي بحسّ الزهراء المرهف هو الذي يتكلّم الآن ثم يحكم، أو كأنّي بصفتها